عبد النبيل براني

جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة

أستاذ محاضر أ

تخصص: التاريخ الوسيط

a.berrani@univ-skikda.dz

المحور الثاني: جذور التواصل والتفاعل بين الجزائر ومصر وتطور وتوسع الصلات بين الطرفين

عنوان المداخلة: حركة العلماء بين مصر المملوكية والجزائر الزيانية ودورها في تعزيز الروابط بين البلدين

مقدمة:

بدأ التواصل العلمي والثقافي بين المشرق والمغرب الإسلامي منذ الفتح، وكانت مصر قاعدة انطلاق جيوش الفتح منذ مرحلة الاستكشاف في العهد الراشدي إلى مرحلة استقرار الفتح في العهد الأموي. وفي العهد المملوكي لمصر كانت مدينة القاهرة أهم حاضرة توفرت فيها عوامل الجذب الثقافي ومنها وفرة المؤسسات العلمية والثقافية، ولكونها أيضا عاصمة للخلافة الإسلامية ولدولة المماليك القوية، التي تصدت للمغول شرقا وللصليبيين غربا، ولذلك ارتبطت حواضر المغرب عموما علميا وثقافيا بالقاهرة، ومنها تلمسان عاصمة الزيانيين وظلت هذه العلاقات وطيدة ومتينة بين رجال العلم من الدولتين حتى وان شهدت العلاقات السياسية بينهما جمودا وبرودا.

ويحاول هذا البحث الاجابة عن الأسئلة التالية:

ماهي الظروف التي ظهرت فيها دولتا الزيانيين في الجزائر والمماليك في مصر؟

وكيف كانت الأوضاع العلمية والثقافية في الجزائر ومصر خلال ذلك العهد؟

ومن هم أعلام حركة العلماء بين البلدين؟

وأخيرا ماهي أهم نتائج وآثار هذه الحركة؟

وللإجابة على هذه الأسئلة سيتم سرد أحداث وظروف قيام الدولتين الزيانية والمملوكية ووصف الأوضاع العلمية والثقافية في كل منهما، وإحصاء عينة من مشاهير وأعلام حركة العلماء بين البلدين ثم محاولة الوصول إلى نتائج وآثار لهذه الحركة.

ويهدف الموضوع إلى تسليط الضوء على استمرار التواصل الفكري والثقافي بين المغرب والمشرق عموما، وبين الجزائر ومصر خصوصا خلال تاريخهما الوسيط.

واعتمد البحث على مصادر جزائرية من العهد الزياني ومصرية من العهد المملوكي، كما استأنس ببعض المراجع التي تقاطعت في بعض جزئياتها مع الموضوع.

1ـ قيام الدولة الزيانية في الجزائر والدولة المملوكية في مصر:

مثل القرن السابع الهجري مرحلة فاصلة في تاريخ العالم الإسلامي من الناحية السياسية، ففي المشرق سقطت الممالك الإسلامية بأيدي المغول حتى وصلوا إلى بغداد وقضوا على الخلافة العباسية، ثم عبروا نهر الفرات ولم يستطع أمراء الشام الأيوبيين التصدي لهم وبالتالي قضي على ما تبقى من الدولة الأيوبية مفسحة المجال لدولة المماليك الناشئة والقوية.

أما في المغرب الإسلامي فقد شهد هذا القرن بداية حروب الاسترداد التي بدأتها الإمارات المسيحية في الأندلس، والتي كانت تهدف إلى طرد المسلمين منه التي كانت تحكم المغرب والأندلس، مستغلة نكسة الموحدين في معركة العقاب سنة 689هـ/1212م، فبدأت المدن الأندلسية في السقوط الواحدة تلو الأخرى ولم تبق إلا غرناطة في يد بني نصر جنوب الأندلس، وأفسحت دولة الموحدين المترنحة بعد معركة العقاب المجال لظهور دول جديدة على أنقاضها اقتسمت المغرب الإسلامي وهي دولة بني مرين في المغرب الأقصى سنة 641هـ/1244م ودولة بني زيان في المغرب الأوسط سنة 633هـ/1235م ودولة

بني أبي حفص سنة 627هـ/1229م في المغرب الأدنى ودولة بني الأحمر في غرناطة سنة 635هـ/ 1238م.

1-1 الدولة الزيانية في الجزائر:

ينسب الزيانيون إلى بني عبد الواد من قبائل زناتة البربرية[1]، ويرجع البعض نسبهم إلى أحد أمراء السليمانيين العلويين الذي اختلط ببني عبد الواد بالمصاهرة وبقيت له ذرية فيهم خرج منها ملوك بني زيان[2]. وكان بنو عبد الواد تنتقل بقطعانها جنوب الأطلس الصحراوي بين سجلماسة جنوب المغرب الأقصى والزاب جنوب المغرب الأوسط، وأمام الضغط قبائل بني هلال لزم بنو عبد الواد البلاد الواقعة جنوب تلمسان إلى الصحراء جنوبا، ودخلوا في دعوة الموحدين الذين أمرائهم تلمسان وضواحيها فتداولوها إلى غاية عهد يغمراسن بن زيان والذي يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة الزيانية بعد أن ولاه الخليفة الموحدي الرشيد المغرب الأوسط وحاضرته تلمسان[3].

شملت الدولة الزيانية المغرب الأوسط، وأما حدودها فلم تكن ثابتة مستقرة طيلة مدة الدولة، فلقد كانت هذه الحدود تتغير بتغير الظروف السياسية، وفي عهد المؤسس يغمراسن كان حدها من الغرب وادي ملوية، وشرقا إقليم المتيجة وجنوبا الصحراء، وأما في عهد خلفاء يغمراسن فتوسعت الدولة شرقا على حساب الدولة الحفصية وضمت بجاية وقسنطينة[4]، لكن وفي بعض مراحل الدولة انكمشت هذه الحدود هذه الحدود إلى أسوار مدينة تلمسان[5]، ومنه يمكن القول أن حدود الدولة الزيانية لم تكن ثابتة ومستقرة حيث تراوحت بين التمدد والتقلص، إلا أنها كانت عموما تمتد من البحر شمالا إلى الصحراء جنوبا، ومن بجاية شرقا إلى وادي ملوية غربا.

---

[1] ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمد (808هـ/1406م)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، 1981، ج.6، ص. 5 وما بعدها.

[2] التنسي، محمد بن عبد الجليل (ت. 899هـ/1493م) : تاريخ دولة الأدارسة، تح. عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1984، ص.67.

[3] بن خلدون، يحيى أبو زكرياء (780هـ/1378م)، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تح. عبد الجميد حاجيات، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ح.1، ص. 204.

[4] ابن خلدون، عبد الرحمان : المصدر نفسه، ج.7، ص. 220.

[5] ابن خلدون، يحي: المصدر نفسه،ج.1، ص. 210.

1ـ2 الدولة المملوكية في مصر:

قامت دولة المماليك في مصر على أنقاض الدولة الأيوبية وشملت مصر والشام حوالي ثلاثة قرون، وتميزت هذه الدولة بكون حكامها من طبقة الرقيق الذين تم جلبهم إلى مصر لتكوين الجيش فتكاثرت أعدادهم وكونوا طبقة غريبة غير منسجمة مع طبقات المجتمع المصري والشامي، حيث يرجع أصل هؤلاء المماليك إلى أجناس وشعوب مختلفة، وأكثريتهم من جنس الترك مواطنهم حول القوقاز وبحر الخزر، تم جلبهم من أسواق الرقيق وكانوا يتميزون بالصلابة والشدة في القتال وطاعة الأوامر وحب الجندية[1].

بعد وفاة الملك الأيوبي الصالح نجم الدين سنة 647هـ/1249م تولى الحكم بعده ولي عهده توران شاه لكنه اختلف مع المماليك ومع زوجة أبيه شجرة الدر، فدبر المماليك قتله سنة 648هـ/ 1250م لتطوى صفحة الدولة الأيوبية[2] وتفتح على انقاضها صفحة دولة المماليك بتنصيب شجرة الدر ملكة على مصر على أن يكون عز الدين أيبك قائد المماليك نائبا لها ثم تزوجته وتخلت له عن الملك[3].

مرت دولة المماليك في تاريخها بمرحلتين، دولة المماليك البحرية وسيطر عليها المماليك من أصول تركية من 648ـ 784هـ/1250ـ 1382م، وأطلق عليهم اسم البحرية لأن الأيوبيين في جزيرة وسط النيل[4]، وأشهر سلاطين هؤلاء المماليك البحرية هو سيف الدين قطز الذي هزم المغول في عين جالوت سنة 658هـ/1260م[5]. وأما المرحلة الثانية فهي مرحلة المماليك البرجية من 784ـ923هـ/ 1382ـ1517م وهم من أصول جركسية وسموا بالبرجية لأنهم سكنوا أبراج القلعة حين كانوا يجلبون إلى مصر ثم سمح لهم بالسكن في القاهرة واختلطوا بالمماليك البحرية، لكن سرعان ما شب الخلاف والنزاع

---

[1] ابن خلدون، عبد الرحمان: العبر، ج. 5، ص.786.

[2] المقريزي، تقي الدين أبو العباس (ت.845هـ/1442م) : السلوك لمعرفة دول الملوك، تح. محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، 1997، ج.1، ص.352 وما بعدها.

[3] المصدر نفسه، ص. 362.

[4] المقريزي، تقي الدين أبو العباس (ت.845هـ/1442م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تح. محمد زينهم ومديحة الشرقاوي مكتبة مدبولي، القاهرة، 1997ج.2، ص.234.

[5] أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل (ت. 732هـ/1331م: المختصر في أخبار البشر، تح. محمد ديوب، دار الكتب العلمية، بيروت 1997، ج.2، ص. 314.

بينهما لاختلاف الأصل ونتج عن هذا النزاع استيلاء المماليك البرجية على الحكم سنة 784هـ/1382م[1].

2ـ الحركة العلمية في الدولتين الزيانية والمملوكية:

2ـ1 الحركة العلمية في الدولة الزيانية:

شهدت الحركة العلمية في المغرب الأوسط في العهد الزياني ازدهارا ملحوظا، وحظيت علوم الدين بمكانة وأهمية كبيرة وفق المذهب المالكي والذي كان المذهب الرسمي للدولة الزيانية، وكان هذا المذهب قد عرف تقييدا شديدا في عهد الموحدين رغم تمسك عموم المغاربة به، وكانت سياسة الموحدين تتمحور حول إلغاء علم الفروع وبالتالي إلغاء المذاهب وتبني كتب أبي حامد الغزالي وغيره من الأشاعرة[2]، إلا أن المذهب المالكي استعاد مكانته بعد قيام دولة الزيانيين الذين أعادوا له الاعتبار على يد مؤسس الدولة يغمراسن بن زيان الذي استقدم الفقيه المالكي أبي إسحاق التنسي إلى تلمسان وأجلسه للتدريس[3]، فتحولت تلمسان إلى مركز علمي تدرس فيه العلوم الدينية وفق المذهب المالكي وهي علم التفسير وعلم القراءات وعلم الفقه وعلم الحديث، وبما أن ذلك العصر قد شهد تنامي وانتشار ظاهرة التصوف في العالم الإسلامي مشرقا ومغربا ظهر التصوف في العديد من علماء المغرب الأوسط الذين ألفوا في هذا المجال. وإلى جانب علوم الدين اهتم العلماء في المغرب الأوسط بعلوم العربية نحوها وصرفها وشعرها ونثرها لارتباط اللغة العربية بفهم القرآن والحديث النبوي، كما نال علم التاريخ اهتماما كبيرا لارتباطه بسياسة الحكم وشغف الحكام والملوك به فألفت فيه الكتب وذاعت شهرة مؤلفيها، وكذلك علم الحساب وعلم الطب وعلم الفلك وبرز فيها علماء تخصصوا فيها.

2ـ2 الحركة العلمية في الدولة المملوكية:

وفي مصر المملوكية شهدت الحياة العلمية ازدهارا كبيرا وظهرت المؤلفات في أصناف العلوم وتميزت بالموسوعية، واحتلت علوم الدين والشريعة الصدارة بفضل الجو الديني الذي كان سائدا في مصر بعد

---

[1] المقريزي: السلوك، ج.3، ص.474.

[2] المراكشي، محي الدين عبد الواحد (ت. 647هـ/1250م): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح. صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية بيروت، 2006، ص. 202.

انتقال الخلافة العباسية إلى القاهرة واصبحت حاضرة الخلافة والجهاد المتواصل ضد المغول في العراق والصليبيين في الشام، فجذبت القاهرة إليها العلماء وطلبة العلم من جميع أرجاء العالم الإسلامي على اختلاف مذاهبهم، إلا أن المماليك حرصوا على استبعاد مذهب الشيعة الفاطمية الذي كان سائدا في مصر في العهد الفاطمي وقصروا التدريس على مذاهب أهل السنة والجماعة[1]، فكانت علوم الدين تدرس وفق هذه المذاهب الأربعة وخاصة الفقه. وإلى جانب الفقه برز العديد من العلماء في الحديث والتفسير والقراءات، وكثرت مؤلفاتها الموسوعية مما استدعى تأليف اختصارات لها لتسهيل الاستفادة منها[2]. كما انتشرت ظاهرة التصوف في مصر المملوكية شأنها في ذلك شأن المغرب الأوسط وحظي التصوف ورجاله برعاية المماليك، فبنوا لهم الزوايا وأجروا عليهم الرواتب والهبات، وظهر العديد من المؤلفين في هذا المجال. كما راجت في مصر خلال هذا العهد علوم العربية ولقيت اهتماما كبيرا توزعت إلى عدة تخصصات كعلم اللغة وعلم النحو وعلم الصرف أو التصريف وعلم البيان وعلم النحو وعلم العروض وعلم القوافي وعلم الخط والكتابة، وتمثلت أهمية علوم اللغة في الحاجة إليها لفهم معاني القرآن والحديث النبوي[3]، ولحاجة دواوين الدولة وخاصة ديوان الإنشاء إلى متضلعين في اللغة العربية. كما نال علم التاريخ اهتمام المماليك لارتباطه كما قلنا بالسياسة، فكان المؤرخون من جلساء سلاطين المماليك يقربونهم إليهم لتدوين سيرتهم وأعمالهم وتجميلها، وتميزت الكتابات التاريخية في العهد المملوكي بأنها جعلت من التاريخ علما مستقلا يمكن تقسيمه إلى عدة تخصصات ليتم التفريق بين التاريخ العام والتاريخ السياسي والعسكري والتاريخ الطبيعي الذي ميدانه الظواهر الطبيعة والاجتماعية كالزلازل والفيضانات والمجاعات والأوبئة. وإلى جانب علوم الدين وعلوم اللغة وعلم التاريخ راجت أيضا العلوم الأخرى كالمنطق والطب والحساب والفلك[4]

---

[1] ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن (ت. 874هـ/1470م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح. محمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، 1992، ج.7، ص.133.

[2] القلقشندي، أحمد بن علي (ت. 821هـ/1418م): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العمية، بيروت، 1987، ج.1 ص.470.

[3] المصدر نفسه، ص. 466.

[4] المصدر نفسه، ص. 473.

3ـ أعلام حركة العلماء بين الجزائر الزيانية ومصر المملوكية:

عرف علماء المغرب الإسلامي عموما بشغفهم بالرحلة إلى المشرق لأداء فريضة الحج وللمجاورة في مكة والمدينة، وكانوا يستغلون هذه الرحلة الحجية للقاء نظرائهم في حواضر المشرق، وكانت أهم هذه الحواضر مدينة القاهرة التي كانت محطة رئيسية في طريقهم إلى الحج كما كانت تستقطب العلماء من جميع أرجاء العالم الإسلامي. كما كانت تلمسان من أهم حواضر المغرب الإسلامي تستقطب العلماء من المغرب ومن المشرق.

3ـ1حركة العلماء من الجزائر إلى مصر:

كانت الجزائر في العهد الزياني تعيش حركة علمية تميزت بكثرة علمائها، وقلما وجد عالم منهم ليست له رحلة إلى المشرق، ومن مشاهير هؤلاء العلماء الذين ارتحلوا إلى المشرق وقصدوا مصر وحواضرها:

- **أبو إسحاق بن يخلف التنسي** (المتوفي سنة 680هـ/1281م)، وينسب إلى بلدة تنس في المغرب الأوسط، تلقى تعليمه في تلمسان وبجاية وتونس، وله رحلة إلى مصر التقى فيها بعدة علماء مصريين ومشارقة كأبي عبد الله الأصبهاني الذي قدم من المشرق واستقر بمصر وله عدة مؤلفات أشهرها كتاب القواعد[1]، وشهاب الدين القرافي أحد تلاميذ العز بن عبد السلام صاحب كتاب التنقيح في أصول المذهب المالكي[2]، كما التقى علماء آخرين واطلع على كتبهم وتحصل منهم على الاجازات العلمية، ولغزارة علمه عرض عليه التدريس بأحد المدارس الشافعية بالقاهرة لكنه اعتذر عن ذلك وعاد إلى تلمسان بعد أن استفاد من لقاء علماء مصر.[3]

- **ابن عبد الله حافي راسو** (رأسه) وهو محيي الدين محمد بن عبد الله التلمساني الملقب بحافي راسو المتوفي سنة 693هـ/1292م، تلقى تعليمه بتيهرت ثم تلمسان[4] ثم ارتحل إلى مصر واستقر بمدينة

---

[1] الذهبي، شمس الدين أحمد بن محمد (ت. 748هـ/1348م) : سير أعلام النبلاء، بيت الأفكار الدولية، لبنان، 2004، ج.16 ص.246.

[2] مخلوف، محمد بن عمر بن قاسم : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003، ص. 191.

[3] ابن خلدون، يحيى: المصدر السابق : ج.1، ص. 114.

[4] الذهبي: المصدر نفسه، ج. 17، ص.175.

الإسكندرية وتولى التدريس فيها والتقى بالعديد من علماء مصر[1]، واشتهر حافي راسو بعلم النحو حتى تم اعتباره من نوابغ هذا العلم في المشرق والمغرب.

– **مجمد بن إبراهيم الآبلي**، وهو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم العبدري[2] التلمساني المتوفي سنة 757هـ/1356م، أندلسي الأصل من آبلة من نواحي مجريط، انتقلت أسرته من الأندلس إلى تلمسان، وله رحلة إلى لحجاز وأثناء عودته مكث مدة بمدينة الإسكندرية التقى فيها بعلماء مصر[3]، ثم عاد إلى تلمسان بعلم وافر ثم غادرها بعد مدة وتوجه إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى واستقر بها للتدريس.

– **أبو عبد الله المقري**، وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد القرشي المقري التلمساني، نسب إلى مسقط رأسه قرية مقرة من نواحي تلمسان[4] المتوفي سنة 759هـ/1359م، له رحلة إلى المشرق التقى خلالها بالعديد من العلماء كشمس الدين الأصبهاني وتاج الدين التبريزي وهما من علماء المشرق المستقرين بمصر[5] وغيرهما من علماء مصر، فاستفاد من لقائهم بعد مناظرتهم والأخذ عنهم ثم عاد إلى تلمسان بعد أن استزاد من العلم الوفير.

– **ابن أبي حجلة التلمساني**، وهو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحي بن أبي حجلة المتوفي سنة 776هـ/1375م، ينحدر من عائلة صوفية وله رحلة إلى المشرق قادته إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ومن الحجاز توجه إلى دمشق الشام ثم غادرها وتوجه إلى القاهرة بمصر واستقر بها في وسط صوفيتها حتى تولى مشيخية الصوفية في أحد مساجد ضواحي القاهرة[6] إلى غاية وفاته. وكان ابن أبي حجلة إلى

---

[1] لذهبي: المصدر السابق، ج. 17، ص.175.

[2] نسبة إلى بني عبد الدار وهم بطن من قريش.

[3] ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمد (ت. 808هـ/ 1406م) ، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1979، ص. 326، 327.

[4] بن خلدون، يحي: المصدر السابق، ص.121.

[5] المقري، أبو العباس أحمد بن محمد (ت.1041هـ/1631م): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تح. يوسف الشيخ ومحمد البقاعي، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، 1998، ج.6، ص. 208 وما بعدها.

[6] المقريزي: الخطط ، ج.2، ص. 320.

جانب تصوفه شاعرا وأديبا غزيز التأليف، حيث أحصي له أكثر من ثمانين كتابا في علوم الدين والنحو والأدب[1]، وأهدى أحد كتبه وهو ديوان الصبابة إلى السلطان المملوكي الناصر حسن.[2]

-ابن مرزوق الخطيب، وهو محمد بن أحمد بن مرزوق التلمساني يكنى بأبي عبد الله ويلقب بالرئيس[3] وتوفي سنة 781هـ/1379م. وكانت علاقة ابن مرزوق بمصر وثيقة جدا ويظهر ذلك من كثرة زياراته لها، فلقد زارها أول مرة رفقة والده في الرحلة إلى الحجاز سنة 717هـ/ 1317م وعمره آنذاك خمسة عشر سنة[4]، ثم زارها مرة أخرى سنة 724هـ/ 1324م رفقة والده في رحلة ثانية إلى الحجاز قصد المجاورة في مكة المكرمة[5]، وفي سنة 734هـ/ 1334م قام رفقة والده مرة أخرى برحلة إلى مصر قصدا خلالها مدينة القاهرة فأقاما بها والتقى الخطيب فيها وفي الاسكندرية بعدة علماء، ثم ذاعت شهرته في مصر وعرض عليه التدريس في مدارس القاهرة لكنه فضل العودة إلى تلمسان.[6] وفي سنة 763هـ/1360م قام ابن الخطيب برحلته الأخيرة إلى مصر قصد الاستقرار فيها[7]، فقصد أولا الإسكندرية ثم تحول إلى القاهرة وتولى التدريس في مدارسها وحظي بمكانة رفيعة لدى المماليك حتى وفاته سنة 781هـ/1379م[8].

وبالإضافة إلى ما تقدم ذكره من علماء المغرب الأوسط فإنه يمكننا أن نضيف محمد بن الإمام المتوفي سنة 845هـ/1443م، و الذي كان أحد علماء تلمسان في اللغة والأدب وذو اهتمام بعلم الطب، وكانت له رحلة إلى المشرق زار خلالها القدس ودمشق والقاهرة والإسكندرية، وفي مصر التقى بعدة علماء

---

[1] عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت لبنان، 1980، ص. 364.

[2] ابن أبي حجلة، شهاب الدين أبو العباس (ت. 776هـ/1375م) : سكردان السلطان، تح. علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2001، س. 309.

[3] المقري: المصدر السابق، ج. 5، ص. 390.

[4] نفسه

[5] المصدر نفسه ، ج. 6، ص. 320.

[6] فيلالي عبد العزيز: تلمسان في العهد الزياني، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2002، ج. 2، ص. 333.

[7] ابن مريم، أبو عبد الله بن أحمد (كان حيا سنة 1014هـ/1605م): البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، تح. محمد بن أبي شنب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص.185.

[8] ابن خلدون، عبد الرحمان، التعريف، ص. 848.

حصل منهم على كتب مشرقية لم تكن معروفة في بلاد المغرب عاد بها إلى تلمسان[1]. وكذلك قاسم بن سعيد العقباني المتوفي سنة 854هـ/1450م والذي ارتحل من تلمسان إلى مصر والتقى بابن حجر العسقلاني الذي أجازه، وحضر دروس علماء آخرين ثم عاد إلى تلمسان بعد أن استفاد وانتفع من رحلته العلمية وتفرغ للتدريس.[2]

3ـ2 حركة العلماء من مصر إلى الجزائر:

لقد سبقت الإشارة إلى أن الباحث في موضوع حركة العلماء بين المغرب الأوسط والمشرق عموما سيلاحظ أن هذه الحركة تكاد تكون في اتجاه واحد، وأن أعداد ونسبة حركة العلماء من الجزائر الزيانية إلى مصر المملوكية كانت أكبر من نظيرتها وهي حركة العلماء من مصر المملوكية إلى المغرب الزياني وذلك راجع إلى عدة أسباب وظروف، وفي هذا الصدد فإننا لن نجد في المصادر من علماء مصر من قصد المغرب الأوسط واستفاد من لقاء علمائه غير عبد الباسط بن خليل الحنفي، وهو عبد الباسط بن خليل الملطي الحنفي المتوفي سنة 920هـ/1514م، انتقلت أسرته من ملطية إلى بلاد الشام وتنقلت من حلب الى دمشق التي تلقى فيها تعليمه ثم حفظ القرآن واطلع على علم القراءات وعلم الفقه على المذهب الحنفي على أيدي فقهاء هذا المذهب في دمشق[3]، ثم انتقل إلى مصر واشتغل بالتجارة، وكان له شغف كبير بعلم الطب فاطلع على كتبه المعروفة في المشرق، وبما أن علم الطب كان أكثر رواجا وتطورا في المغرب الإسلامي عموما قرر عبد الباسط بن خليل القيام برحلة لاقتناء كتب الطب و البحث عن فرص للتجارة، واختار للقيام برحلته الطريق البحري انطلاقا من الإسكندرية إلى طرابلس الغرب ومنها برا إلى تونس، ومن تونس قصد المغرب الأوسط فوصل إلى بجاية ومنها توجه إلى مدينة الجزائر فالتقى اشهر شيوخها عبد الرحمان الثعالبي وسمع منه وأجازه[4]، ثم توجه إلى تلمسان فوصلها سنة 868هـ/1464م[5] في يوم الأضحى، وزار ضريح أبي مدين شعيب والتقى أحد علماء تلمسان وهو أبو عبد الله محمد بن العباس وأعجب بعلمه الواسع حتى سماه عالم تلمسان وبحر فنون العلوم، وحضر

---

[1] السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمان (ت.902هـ/1497م): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت، لبنان 1992، ج. 3، ص. 19.

[2] ابن مريم: المصدر السابق، ص. 147.

[3] السخاوي: المصدر نفسه ج. 4، ص. 27.

[4] Brunshrik: deux récits de voyage inédits en Afrique du nord au XV[éme] siècle, Abdel-Abdel-Basit. B, Larose, éditeurs, Paris, 1936, p. 41.

[5] Ibid

دروسه التي وصفها بأنها حافلة بطلبة العلم،[1]كما التقى وتحاور في تلمسان مع عدد من فقهائها وقضاتها، ولاهتمامه بعلم الطب الذي كان الدافع الأساسي لحركته نحو المغرب الأوسط فقد حرص على لقاء أطباء تلمسان كالطبيب محمد بن علي فشوش وسمع منه وحضر دروسه وحصل منه على إجازة،[2]كما التقى الطبيب موشي بن صمويل اليهودي المالقي واعجب بمهارته في الطب وبقي ملازما له ليستفيد من علمه ومهارته في الطب وليحصل منه على الإجازة.[3]ثم انتقل إلى وهران سنة 869هـ/ 1464م والتقى بمفتيها أبو العباس المالكي، ثم عاد إلى تلمسان وطلب منه تأليف قصيدة في مدح السلطان الزياني فنظمها وألقيت في حضرة السلطان يوم عيد الفطر، ومما جاء في هذه القصيدة:

أعني المليك الذي شاع مكارمه

من آل زيان أقيال أماجيـــــد

هم الملوك وأبناء الملوك ومــن

سوى ذا فذاك القول مردود[4]

ومن تلمسان قصد الأندلس بحثا عن كتب الطب ثم عاد إلى وهران ومنها سافر راجعا إلى مصر سنة 871هـ/1464م.

4ـ نتائج وآثار حركة العلماء بين الجزائر ومصر:

4ـ1 ظهور المدارس:

كان من أهم نتائج حركة العلماء بين الجزائر الزيانية ومصر المملوكية ظهور المدارس في الجزائر، وكانت بداية ظهور ومنشأ المدارس في التاريخ الإسلامي في بلاد المشرق في عهد السلاجقة لخدمة المذهب الحنفي ثم انتقلت الى العراق وظهرت المدارس متعددة المذاهب، أما في الجزائر الزيانية فالفضل في ظهور المدارس راجع إلى العلماء الذي زاروا مصر وتعرفوا عليها ثم عادوا وشجعوا ملوك الزيانيين على تقليد

[1] Ibid, p.43، 44
[2] Ibid, p.44
[3] Ibid.
[4] Ibid: p.47 ،48

سلاطين المماليك في بنائها والاشراف عليها لخدمة المذهب الرسمي السائد في بلاد المغرب الاسلامي عموما، وبالرغم من تأخر ظهور المدارس في بلاد المغرب مقارنة بالمشرق إلا أن بناء وتأسيس الزيانيين لمدرسة أولاد الإمام كان تمهيدا وبداية لتأسيس مدارس أخرى في الجزائر الزيانية[1]

4ـ2. تطور مناهج وطرق التدريس:

تعرف علماء الجزائر الزيانية على مناهج التدريس في مصر وأدخلوها إلى بلادهم، ومن أهمها منهج السؤال والجواب، ويسمى أيضا منهج أو طريقة المحاورة، وكان أول من أدخله إلى تلمسان ابنا الإمام ولقي هذا المنهج في الجزائر قبولا واستحسانا لدى العلماء والطلبة، لأنه جعل من طالب العلم أساسا لعملية التدريس، ويكتفي العالم المدرس بإدارة النقاش والحوار[2]، فساعد هذا المنهج على تطور وازدهار التعليم في الجزائر الزيانية.

وبالإضافة إلى ادخال المناهج ادخل علماء الجزائر الزيانية أيضا من مصر ظاهرة نصب الكراسي العلمية، إذ ينصب كرسي في المسجد أو المدرسة ليجلس عليه العالم ويتحلق حوله الطلبة ويلقي عليهم الدرس، وكانت الكراسي العلمية هذه من صلاحية السلاطين كباقي الوظائف الهامة في الدولة يمنحونها لمن يختارونه ويرونه أهلا للتدريس[3].

4ـ3 تبادل الكتب:

مكنت حركة العلماء بين الجزائر الزيانية ومصر المملوكية من التعرف والاطلاع على الانتاج العلمي للطرفين والمتمثل في المؤلفات في أصناف العلوم، خاصة أن هذه الفترة عرفت طفرة وغزارة في تأليف الكتب والانتاج العلمي. وحرص علماء الجزائر على ادخال كتب علماء مصر التي لم تكن معروفة في بلادهم، فحملوها معهم واعتنوا بها ودرسوها ووضعوا لها الشروح والاختصارات، ثم درسوها في المساجد والمدارس، ومن الأمثلة على هذه الكتب كتاب مختصر بن الحاجب في فروع المذهب المالكي، وكان من أدخله إلى الجزائر وبجاية هو أبو علي الزواوي ثم انتقل الكتاب إلى تلمسان[4]، ويعتبر هذا الكتاب من

---

[1] ابن خلدون، عبد الرحمان: العبر، ج.7، ص.206.

[2] فيلالي: المرجع السابق، ج.2، ص.353.

[3] المرجع نفسه: ص.349.

[4] مخلوف: المصدر السابق، ص. 166 وما بعدها.

أهم مصادر الفقه المالكي، وألف علماء الجزائر حوله شروحا وتعليقات وحواشي. وكذلك كتاب مختصر خليل بن إسحاق وهو موسوعة في الفقه المالكي أدخله علماء الجزائر من مصر وصار من الكتب المعتمدة في تدريس الفقه المالكي، وألفوا عليه الشروح والتعليقات[1]. وكتاب ألفية ابن مالك في النحو لابن مالك النحوي، وهو كتاب في النحو في قالب شعري يتكون من ألف بيت فسمي بالألفية، وصار هذا الكتاب مرجعا في الجزائر الزيانية في دراسة النحو، وألفت حوله عدة شروح[2].

كما دخلت إلى مصر المملوكية كتب العلماء الجزائريين، حيث حرص علماء الجزائر على بعث كتبهم إلى الجامع الأزهر لتوضع في رواق المغاربة فيطلع عليها علماء وطلبة مصر، ومن الأمثلة على هذه الكتب كتاب القواعد للمقري الجد.[3]

خاتمة:

وفي الأخير توصل البحث إلى النتائج التالية:

ـ ظلت العلاقات الفكرية والعلمية مستمرة بين المغرب و المشرق وتعتبر حركة العلماء بين مصر و الجزائر في العهدين الزياني والمملوكي مظهرا لها.

– أعداد ونسبة حركة العلماء بين الجزائر ومصر غير متكافئة، فنسبة حركة علماء الجزائر في العهد الزياني إلى مصر المملوكية كانت أكبر من حركة علماء مصر المملوكية إلى الجزائر الزيانية، وكان ذلك راجع لعدة أسباب وعوامل.

ـ أدت حركة العلماء بين البلدين إلى تعرف المماليك في مصر على علماء الجزائر فعرضوا عليهم الاستقرار في مصر وتولي التدريس فيا.

ـ أدت حركة العلماء إلى توحيد مناهج التدريس في المساجد والمدارس الجزائرية والمصرية في ذلك العهد كما أدت إلى تبادل الكتب الرائجة وانتشارها في الدولتين، مما عزز من الترابط والتفاعل الثقافي والفكري بين مصر والجزائر خلال ذلك العهد.

---

[1] حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسماء الكتب و الفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1999،ج.1، ص. 150.

[2] المصدر نفسه، ج.1، ص. 151، 152، 153.

[3] المقري: المصدر السابق، ج.6، ص.230.

مصادر ومراجع:

1ـ ابن أبي حجلة، شهاب الدين أبو العباس(ت. 776هـ/1375م) : سكردان السلطان، تح. علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2001.

2ـ ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن (ت. 874هـ/1470م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح. محمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، 1992.

3ـ التنسي، محمد بن عبد الجليل (ت. 899هـ/1493م) : تاريخ دولة الأدارسة، تح. عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1984.

4ـ حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسماء الكتب و الفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان 1999،ج.1.

5ـ ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمد (808هـ/1406م)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، 1981، ج.6.

6ـ ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمد (ت. 808هـ/ 1406م) ، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1979.

7ـ ابن خلدون، يحيى أبو زكرياء (780هـ/1378م)، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تح. عبد الجميد حاجيات، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ح.1.

8ـ الذهبي، شمس الدين أحمد بن محمد (ت. 748هـ/1348م) : سير أعلام النبلاء، بيت الأفكار الدولية، لبنان، 2004، ج.16.

9ـ السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمان (ت.902هـ/1497م): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت، لبنان 1992.

10ـ عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت لبنان، 1980.

11ـ أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل (ت. 732هـ/1331م): المختصر في أخبار البشر، تح. محمد ديوب، دار الكتب العلمية، بيروت 1997، ج.2.

12ـ فيلالي عبد العزيز: تلمسان في العهد الزياني، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2002 ج. 2.

13ـ القلقشندي، أحمد بن علي (ت. 821هـ/1418م): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العمية، بيروت، 1987.

14ـ ابن مريم، أبو عبد الله بن أحمد (كان حيا سنة 1014هـ/1605م): البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، تح. محمد بن أبي شنب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986.

15ـ المقريزي، تقي الدين أبو العباس (ت.845هـ/1442م) : السلوك لمعرفة دول الملوك، تح. محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، 1997، ج.1.

16ـ المقريزي، تقي الدين أبو العباس (ت.845هـ/1442م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تح. محمد زينهم ومديحة الشرقاوي مكتبة مدبولي، القاهرة، 1997ج.2.

17ـ مخلوف، محمد بن عمر بن قاسم : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، 2003.

18ـ المقري، أبو العباس أحمد بن محمد (ت.1041هـ/1631م): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تح. يوسف الشيخ ومحمد البقاعي، دار الفكر العربي بيروت، لبنان، 1998.

19- Brunshrik: deux récits de voyage inédits en Afrique du nord au XVéme siècle, Abdel-Basit. B, Larose, éditeurs, Paris, 1936.